

انتقد في بحثه "مذكرات شتوية عن انطباعات صيفية" (١٨٦٣) الكنيسة الإنجيلية التي رآها في أثناء زيارته لبريطانيا، لأنها برأيه تعبر عن مصالح الأغنياء (١٣١ص٧٣)

وبعد مرور خمس سنوات من كتابته "مذكرات شتوية عن انطباعات صيفية" أي في عام ١٨٦٨ أصدر دوستيفسكي رواية "الأبله"، ينتقد بطل الرواية المذكورة واسمه الأمير ميشكين الكنيسة الكاثوليكية (١٣١)، المجلد الثامن ص٤٥٠) وكذلك يتكرر الانتقاد في رواية "الشياطين" ١٨٧١ على لسان أحد أبطال الرواية واسمه شاتوف. واستمر دوستيفسكي في انتقاده للكنائس غير الأرثوذكسية في روايته الأخيرة "الأخوة كارامازوف" التي نشرها في عام ١٨٨٠، أما تولستوي فانتقد الكنائس كلها بما في ذلك الأرثوذكسية لتضامنها مع الأغنياء ضد الفقراء، ولتعاطفها مع الحاكم ضد المحكوم.

وبدأت هذه الأفكار لدى تولستوي منذ شبابه. يقول في قصته "المراهقة": "وأستطيع أن أقول مؤكداً، بأنني خطوت الخطوة الأولى في مجال الشك الديني في شبابي" (٩٤ص٤٤) وصدرت هذه القصة، كما هو معروف في عام ١٨٥٤. في أثناء دراسته في جامعة كازان، كانت تراود تولستوي بعض الأفكار التي لا تتسجم مع تعاليم الكنيسة.

وكذلك نجد مثل هذه الأفكار في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) على لسان بيير بيزوخوف، الشخصية الرئيسية في الرواية المذكورة (٩٧ص٢٩٧).

ونجد مثل هذه الأفكار في مسرحية تولستوي "ويضيء النور في الظلمة" التي كتبها في عام ١٩٠٢ إذ يطالب بطلها واسمه باريس بتوحيد الكنائس من أجل توحيد قلوب المؤمنين، ويركز على الدعوة إلى المحبة والتسامح.

لعل أحد المؤلفات الفكرية الرئيسية لتولستوي هو "اعترافه" الذي كتبه في عام ١٨٨٠، وكتب تولستوي أن إيمان الوسط المتعلم ليس إيماناً، وما هو إلا وسيلة من أجل الوصول إلى بعض الأهداف الحياتية المؤقتة. ولامعنى لحياة هؤلاء الناس، لا بل فإن حياتهم هي جريمة بحد ذاتها.

هكذا كانت حياة الأمير -ابن الملك بوذا، وكذلك كانت حياة الملك سليمان، وحتى حياة تولستوي نفسه الذي يكتب في "اعترافه" أنه أراد الانتحار لأنه لم يجد جواباً عن معنى الحياة، أي لم يجد جواباً عن سؤال: لماذا الحياة؟